لكل عصر لغة

إذا لم يكن تحوّل اللغة على اختلاف العصور أعظم خصائصها فإن هذا التحوّل، ولا ريب في ذلك، أوضح هذه الخصائص، فلا نكاد نمرّ بعصرٍ من العصور إلاّ وجدنا لكل عصرٍ لغة خاصّة وأساليب خاصّة، فقد تشيع في زمنٍ ألفاظ ثم تبطل هذه الألفاظ في زمنٍ آخر، وقد تستفيض فيه أساليب ثم لا نجد لهذه الأساليب أثراً بعده، وقد يكون تحوّل اللغة في بعض الأحيان آية من آيات قوّتها وحياتها، فاللغة الجامدة التي لا تستجيب لبعض الحاجات قد يقلّ صلاحها للحياة على تراخي الأحقاب، ففي كل عصرٍ تولد أشياء وتموت أشياء، ولا بدّ لهذه الأشياء التي تولد من ألفاظٍ تعبّر عنها، فالإسلام حوّل ألفاظاً في أوّل عهده عن وجهٍ إلى وجهٍ، والنحو استعمل ألفاظاً على غير المألوف من معانيها، وما يقال في الإسلام والنحو يقال في العلم والفلسفة والأخلاق والاجتماع وما شابه ذلك، ففي هذه الآفاق نجد ألفاظاً ومصطلحات لم يكن لها من قبل المعنى الذي أراده واضعوها.

الخلاصة إن لكل عصرٍ لغة خاصّة، فقد تعيش طائفة من مفرداتها فيه ثم تموت في عصرٍ آخر، إني لا أحتاج إلى الإكثار من الشواهد في هذا الباب، فكل واحدٍ منّا قد مرّ في خلال مطالعاته بقليلٍ أو كثيرٍ من هذه الشواهد، وإذا كان لا بدّ من الاستشهاد فاني أقتصر على اليسير منه.

كنت أطالع معجم الأدباء فوجدت في أخبار أسعد بن المهذّب المماتي هذه العبارة: «فلمّا رأوا أنني لا وجه لي قيل لي: تحيّل ونجّم هذا المال

شبكة الألوكة www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

عليك في نجوم ... » . لست أخجل من الاعتراف بأني لم أفهم معنى نجّم ونجوم في هذا المقام ، ولمّا رجعت إلى القاموس المحيط علمت أن نجم المالَ ، مخفّفة ، ونجّمه ، مشدّدة ، أدّاه نجوماً ، والنجوم جمع نجم ومعناه الوقت المضروب ، فمن الذي يستعمل في عصرنا هذا نجّم على النحو الذي استعملت عليه في القرنين السادس والسابع ، أو في القرون السابقة ؟ فنحن نقول في يومنا إذا ركب أحدنا دين ولم يستطع دفعه مرّة واحدةً : قسّطه ، بدلاً من نجّمه ، ونقول : الأقساط بدلاً من النجوم ، فالتنجيم بمعناها الأول قد خفيت في عالم الاقتصاد والمال ، وهي لا تعيش إلاّ في عالم معروف ، فالمنجّم هو الذي ينظر في النجوم بحسب مواقيتها وسيرها ، أو الذي يستخرج من هذا النظر التخرّص والأحاديث الملفّقة التي أشار إليها أبو تمّام في قصيدته الخالدة :

أين الرواية ، بل أين النجوم وما صاغوه من زخرفٍ فيها ومن كذب
تخرّصاً وأحاديثاً ملفّقة ليست بنبع إذا عُدّت ولا غَرَب

من هذا كله يتبيّن لنا أن التنجيم بمعنى التقسيط قد عاشت في عصرٍ من العصور ثم بطل استعمالها في عصرٍ آخر . ولست ألجأ إلاّ إلى مثل آخر في هذا الباب ، ففي أخبار الممّاتي المومأ إليه وقع نظري على هذه العبارة : « وإنما كان مقصودي أن أدعك تعيش خائفاً ، فقيراً ، مجحّجاً في البلاد .... » . لقد أصابني في فهم المجحّج ما أصابني في فهم نجّم ، ولما استعنت بالقاموس المحيط وجدت أن قولهم : أمجّ زيد معناه : ذهب في البلاد . وقد ورد في معجم الأدباء مجحّج بدلاً من أمجّ . وسواء أكانت هذه المادّة أمجّ أم كانت مجحّج إنّ معناها القديم : ذهب في البلاد ، شُرّد ، ولم تبق لهذه المادة حياة في عصرنا ، وما أكثر الشواهد في هذا الباب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إلاّ أن هذه الموادّ التي شاعت في حِقْبة من الحقب ، ثم بطل استعمالها على ممرّ الأحقاب قد نستطيع أن نرى لأكثرها تفسيراً في معجمات اللغة ، مثل تفسير نجّم وأمجّ وغيرهما ، أمّا المصيبة في عصرنا فاننّا نمرّ بتعابير لا نفهمها ونحن نعيش مع أصحابها ، ولست أبالغ في قولي إذا قلت إن أكثر هذه التعابير المستحدثة إذا وقفت عليها فاني أسأل عن معانيها فريقاً من أصدقائي الذين يتصلون بالحياة العامة وبمطالعة صحف هذا العهد أكثر مني ، وما أكثر هذه التعابير وما أكثر الذين لا يفهمون معانيها . رجعت وأنا أكتب هذا المقال إلى دفتري الذي أدوّن فيه لغة هذا العصر فوجدت في جملتها قولهم : محاولاً مسح الماء عن وجه الزعيم الروديسي ... وقد استعملت هذه الجملة على المجاز ولم تستعمل على الحقيقة ، ولو استعملت على الحقيقة لما أشكل عليّ معناها ، إلاّ أن استعمالها على المجاز قد غمّض معناها ، فاذا كنت أعيش في العصر الذي شاع فيه هذا التعبير ولم أفهم معناه فما قولنا في العصور الآتية ، كيف يستطيعون أن يفهموا بعد خمسين سنة أو مائة سنة أو أكثر معاني ما يستحدث من التراكيب ، ولا نرى معجماً من معجمات العصر يشرح معاني هذه التراكيب ، فما هي نتيجة هذا كله ؟ إن العصور الآتية يتعذّر عليها فهم طائفة من لغة الحاضر ، فاذا كان تحوّل اللغة على ممرّ الأحقاب قد يدلّ في بعض الأحيان على قوة هذه اللغة وحياتها فان هذا التحوّل إذا أفرطوا فيه واشتطّوا قد يؤدي إلى غموض اللغة بحيث يدقّ على الأذهان فهم أكثرها .

وإذا كان لكل عصرٍ لغة تتحوّل من زمنٍ إلى زمنٍ أفلا نجد للعصور كلها لغة تكاد تكون ثابتة ؟ أفلا نجد أن اللغة السهلة ، البسيطة ، هي لغة العصور كلها ، الخالدة على وجه الدهر ، ولا أدلّ على هذا الخلود من بقايا الفصاح التي لا تزال تعيش في أيامنا على أفواه العامّة وقد مرّ عليها

شبكة الألوكة
www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ألف سنة أو أكثر . فاذا كنت مولعاً بهذه البقايا ، حريصاً على التقاطها وجمعها ، فالسبب في هذا الولع وهذا الحرص سهولتها وبساطتها من جهة ٍ ، ثم دلالتها على أمور ٍ كثيرة من أمور العمران والاجتماع وغير ذلك . فمن هذه البقايا قولنا في لغتنا العامة : رجع لونه ، نجد في أخبار إسحاق ابن إبراهيم الموصلي في معجم الأدباء أنه وقع بينه وبين إبراهيم بن المهدي شيء من التشاتم ، وقد استخف كل واحد ٍ بالآخر ، فرفع الأمر إلى الرشيد وقال له إبراهيم بن المهدي : يا أمير المؤمنين ! شتمني وذكر أمي ، واستخفّ بي ، فغضب الرشيد ، وسأل خادميه عن القصة وكانا حاضرين ، فجعلا يخبرانه ووجهه يربدّ إلى أن انتهيا إلى ذكر الخلافة ، وقد كان الموصلي قال لإبراهيم بن المهدي : أرجو ألاّ يخرجها الله تعالى ، أي الخلافة ، عن يد الرشيد وولده ، وأن يقتلك دونها ، فلمّا انتهى الخادمان إلى هذا القول سرّي عن الرشيد ورجع لونه ...

إن مثل هذا التعبير ، رجع لونه ، شائع في لغتنا العامّة ، فهو حيّ ، قويّ ، لم يذهب من حياته وقوته شيء على طول السنين ؛ فكثيراً ما يساور أحدنا بعض الغضب أو بعض الخوف وما ماثل ذلك فيربدّ وجهه ويصفرّ ، ثم يهدأ صاحب هذا الوجه وتدخل الطمأنينة عليه فنقول : رجع لونه ، فهذا التعبير من التعابير الثابتة في كل زمن ٍ ، لم يتحوّل معناه عن وجه ٍ إلى وجه ، وهو سهل ، بسيط ليس في استعماله انحدار عن أفق البلاغة ، إن رأس البلاغة إنما هو البساطة ، فالذين يميلون في عصرنا إلى تراكيب معقّدة ، لا تفهم معانيها ، إنما يبعدون عن البلاغة ، ويبهم كلامهم فلا يفهمه من يأتي بعدهم في مستقبل الأيّام ، فاذا كان لبقايا الفصاح مزيّة فان من بعض مزاياها السهولة والبساطة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومن هذا القبيل قولنا اليوم في عاميتنا : طار نومه ... فقد جاء في ترجمة الوزير الصاحب في معجم الأدباء كلام لأبي حيّان على الصاحب ، فقد قصَّ أبو حيَّان قصة طريفة لا سبيل إلى تلخيصها ، وردت فيها هذه العبارة : « فما زاغ الرجل عن باب ركن الدولة حتى وصل ودخل في ذلك الوقت الفائت إليه ، فقيل لابن عبّاد ذلك ، فطار نومه وقال : أي شيطان هبط علينا .... » . فقد عاشت جملة أبي حيّان : طار نومه ، حتى يومنا هذا ، أفيستطيع أحدنا أن يقول في مثل هذه الحالة التي يغلب فيها علينا القلق أو الاضطراب ولم ينم في الليل أبلغ من هذا القول : طار نومي .

على أن لبقايا الفصاح وجهاً آخر غير السهولة وغير البساطة ، فقد نجد في بعضها ما يصوّر لنا ناحية من نواحي العمران والاجتماع وغير ذلك ؛ إني لا أستعين الآن على توضيح هذه الفكرة إلاّ بثلاث موادّ : برّاني ، جوّاني ، طرّاحة .

كنت أطالع قبل كتابة هذا المقال كتاب معجم الأدباء ، فوقع إليّ في ترجمة المماتي ما سمّاه ياقوت : نوادره الحادّة ، قال :

« وكان له نوادر حسنة ، حادّة ، منها ما حدّثني به الصاحب القاضي الأكرم ، قال : ركبنا وخرجنا يوماً نسير بظاهر حلب ، فكان خروجنا من أحد أبوابها ، ودرنا سور البلد جميعه ، ثم دخلنا من ذلك الباب ، فقال : اليوم تسييرنا تدليك ، قلت : كيف ، قال : من برّا ، برّا ... » . إني لا ألتفت إلى هذه النادرة مقدار التفاتي إلى هذه اللفظة : برّا ، برّا ؛ إنّا نقول اليوم في لغتنا العامّة : برّا ، أي أخرج ، وقد جاء في القاموس المحيط : من أصلح جوّانيه أصلح الله برّانيه ، وتوسّع الشارح في حاشيته في شرح هذه الجملة واستند إلى من فسّرها على هذا الوجه : من أصلح

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

سريرته أصلح الله علانيته ، أخذ من الجوّ والبرّ ، فالجوّ كل باطن غامض ، والبرّ المتن الظاهر . وسواء أكان هذا الكلام من كلام المولَّدين أم كان من كلام فصحاء العرب في البادية إني لا أدخل في هذا الاختلاف ، فالذي يهمني إنما هو لفظ : برّاني ولفظ : جوّاني ، وقد عاش هذا اللفظ في عصرنا ، فالبرّاني في لغتنا العامّة معناه : الخارج ، والجوّاني معناه : الداخل ، فنقول : الجرح برّاني ، أي في ظاهر جسم الإنسان ، والجرح جوّاني ، أي في باطن جسمه ؛ وفي دمشق حارة يسمونها : البحصة البرّانية والبحصة الجوّانية ، إلاّ أنّا نلفظ الجوّانية بضم الجيم ، وهي بالفتح ، وبعض دور دمشق القديمة التي كان يملكها طبقة من الوجوه والأغنياء تحتوي على برّاني وجوّاني ، فالبرّاني يستقبل فيه صاحب الدار ضيوفه من الرجال في الصباح أو المساء ، وهو ينفصل عن الجوّاني الذي تقيم به النساء ، فهذا البرّاني يدلّنا على نمطٍ من عيشة طائفة من الموسرين والوجوه في دمشق قبل خمسين سنة أو أقل أو أكثر ، فقد كانوا يجلسون فيه ، فيتحدّثون ويسمرون بدلاً من جلوسهم في المقاهي أو المجالس العامّة ؛ أمّا في العمران الحديث فقد بطل هذا البرّاني ، فالدور كلها تشتمل على قسم واحدٍ لا غير ، فيه بهو للضيوف غير منفصل عن أصل الدار .

هذا ما يتعلّق بالبرّاني والجوّاني ، أمّا اللفظة الثالثة فهي : الطرّاحة ، فقد جاء لياقوت في ترجمة إسماعيل بن الحسين بن جعفر الصادق المروزي ما يلي : فلما وقف عليه نزل عن طرّاحته وجلس على الحصير وقال لي : اجلس على هذه الطرّاحة ، فأعظمت ذلك وخدمته .... » . وورود الطرّاحة في هذه الجملة يدلّ الإجلاس عليها على نوع من التكريم ، لم أجد في القاموس المحيط ذكراً للطرّاحة ، والذي نعلمه أن الطرّاحة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

إنما هي نوع من فرش البيت ، تبسط على الأرض للجلوس عليها ، وقد تكون مربّعة أو مستديرة أو مستطيلة ، يحشونها بالقطن أو بالصوف ، يجلسون عليها في حالة التبذّل ، لما في الجلوس عليها من راحة ، وقد كنّا في دمشق نستعملها في دورنا القديمة ، في الصيف نضعها في المساء في صحن الدار ونجلس عليها ، وفي الشتاء نضعها بالقرب من المدافئ التي نتحلّق حولها فنجلس عليها أو قد نسند ظهورنا إلى مخدّات على الحيطان ، فالطرّاحة كانت تدخل في أصل فرش الدار ، أمّا اليوم في العمران الحديث فأكثر الجلوس يكون على الكرسي ، أو على ما يسمونه : الديوان أو الكنباية ، فليس في الدور الحديثة صحون دار يجلسون فيها في الصيف على الطرّاحات ، وقد تشتمل بعض هذه الدور على غرفة يسمونها : غرفة القعود ، وقد توضع الطرّاحة في هذه الغرفة .

★ ★ ★

أفرأينا كيف ان طائفة من بقايا الفصاح التي تعيش على أفواهنا في عصرنا هذا تفصح لنا في بعض الأحيان عن نمطٍ من أنماط العمران أو الحياة الاجتماعية وأشباه هذه الأمور ؟ فإذا شئت أن أختم هذا المقال فلست أختمه إلاّ بما يلي : إذا كان لكل عصر لغة خاصة ، وأساليب خاصة قد يذهب بعضها بذهاب العصر الذي ظهرت فيه فان اللغة التي تصلح لكل العصور إنما هي اللغة السهلة ، البسيطة ، مثل قولنا : رجع لونه ، وطار نومه ، ونظير هذه الطبقة من بقايا الفصاح .

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net